إلغاء الأدمغة منهجيّاً

حسن مدن

أصرّ كولومبس بعد أن وصل إلى الأراضي الأميركية على أنه بلغ الجزر الهندية الشرقية الرائعة التي وعد ملوك إسبانيا الذين موّلوا رحلته بأنها ستجلب لهم الذهب والعاج والبهارات النادرة. قال كولومبس: «أعطوني سفناً، أعطوني فقط سفينة واحدة وسأتيكم بالذهب من الشرق الخلاب». وبعد مفاوضات صعبة مع ملوك إسبانيا الذين كانوا للتوّ قد أخضعوا غرناطة لحكمهم، مُنهين نحو ثمانية قرون من حكم العرب الأندلس، أعطوه سفينتين شراعيتين لم تكونا في حالة جيّدة، لأنهم لم يكونوا واثقين تماماً من نجاح رحلته، فيما استأجر هو الثالثة، كان الياس قد دبّ في صفوف بحّارته، وباتوا يصرّون على العودة من حيث أتوا. حين لاحت الأرض الأميركية من بعد، لم تكن تلك الهند التي كان على كولومبس أن يبحر نحو شهرين آخرين كي يبلغها، ولكن قبل ذلك سيكون بحّارته قد هلكوا، وقد تكون سفنه الثلاث قد غرقت. كانت تلك أميركا، التي أرادها المغامر كولومبس هنداً.

من يومها، بدأ عصر جديد في التاريخ البشري، وتبدو مفارقةً أنّ ذلك كله جرى بالمصادفة وحدها. حتى لو كانت آتية لا ريب فيها ولو بعد حين. ثلاث سفن متهالكة تقصد الهند، فتجد أميركا في طريقها. ستجعل هذه المصادفة من كتابة التاريخ صنعة غربيّة، كأنّ التاريخ لم يكن إلا في الغرب وحده: أوروبا، وتاريخ الوافدين الأوروبيين للأرض الجديدة المكتشفة الواقعة خلف الأطلسي، وكأن لا تاريخ سابقاً للبشرية قبل هذا التاريخ في الشرق البعيد، وحتى لدى السكّان الأصليين في الأرض المكتشفة الذين أسماهم كولومبس هنوداً، لمجرّد أن مقصده كان الهند.

المنسيُّ في هذا كله أنّه لم يكن بوسع الرجل الأبيض في شخص كولومبس نفسه الإقدام على مغامرته، لولا اختراع شرقي عظيم اسمه البوصلة، تلك القطعة المغنطة من الحديد المتّجهة نحو الشمال دوماً التي اخترعها الصينيون، وقادت سفنه إلى الأرض الجديدة. في كلّ بلدٍ خضع للاستعمار خلْف المستعمرين وراءهم، حين رحلوا، مستويين من المعيشة، ما يطلق عليها فرانز فانون «المدينة الكولونيالية»، الحديثة، المتطورة، والمدينة الأخرى، غير الكولونيالية، ما قبل الحديثة.

المدينة الأولى جيّدة الإضاءة والتغذية وهادئة ومنظمة، وخالية من العنف، يمشي فيها الناس في شوارع واسعة، وفي هذه المدينة يعيش المستوطنون الأوروبيون الذين جاء بهم الاستعمار ليديروا البلد المستَعمَر، وينظّموا استغلال ثرواته، وربما نال النعيم شريحة محدودة من سكان البلد الذين دَرّبهم المستعمر وعلّمهم كي يستعين بهم في بعض الوظائف. الحال في المدينة الأخرى، حيث السكّان الأصليّون، تذكّر المرء بالسطور الأولى من قصيدة سيزار «العودة»: إنها «مدينة جائعة، تعاني الحرمان من اللحم، من الأحذية، من الفحم، من الإضاءة، وتتمرغ في الوحل». فلا مدارس يعتدّ بها، ولا مستشفيات أو مراكز صحية، ولا شوارع مبلطة، ولا مرافق صحية، في بيئة مثل هذه لا يمكن إلا أن يعمّ الجهل والأمية والتخلف والأمراض، البنية الأساسية التي أنجزها المستعمرون حُصرت بغرضين أساسيين: الأول، تأمين شروط الهيمنة على الثروات المتاحة ونهبها وتصديرها إلى المركز. والثاني، توفير الحياة المريحة لمن استقدموا من مستوطنين من مواطني الإمبراطورية التي أخضعت البلدان البعيدة لسيطرتها. من أجل تأمين استمرار السيطرة الاستعمارية أطول أمد ممكن على هذه البلدان، وجب إبقاء شعوبها في هذه الحال من الجهل والتخلف. يُنسب إلى المستشار البريطاني في البحرين تشارلز بلجريف قوله ردّاً على مطالبة الأهالي بإبتعاث بعض أبنائهم لدراسة الحقوق، كي يتعرفوا إلى القوانين ويتمكنوا من وضعها: «لن يحتاج البلد حتى لمحام واحد خلال المائة عام المقبلة». كان هذا القول في منتصف القرن العشرين تقريباً. عدد المحامين في البحرين، وقد بتنا في القرن الحادي والعشرين، يُعَدّ بالآلاف لا بالمئات. تُرى كيف سيكون الحال لو بقيت الكلمة لمثل هذا المستشار؟

حين كتب فرانز فانون، مؤلف «معذّبو الأرض» و«بشرة سوداء، أقنعة بيضاء» استقالته من مستشفى بليدة بالجزائر الذي كان يعمل فيه طبيباً نفسياً، فترة الاستعمار الفرنسي، قال فيها: «المشروع الكولونيالي في الجزائر مشروع إلغاء دماغ شعب بصورة منهجية». أيّ مدى من الشجاعة يمتلكه ورثة الإمبراطوريات الاستعمارية اليوم في الإقرار بما اقترفته أيادي أسلافهم من تجهيل وإفقار أمم بكاملها، ما زالت عاجزةً عن كسر دائرة التخلف حتى اللحظة؟

انكشاف العرب فكرياً

محمد أبو رمان

من يتابع الجدل والنقاش السياسي والإعلامي العربي، وحتى السجالات على مواقع التواصل الاجتماعي، يُصَب بالذهول لحجم الاستقطاب والصراع الداخلي، ليس فقط على صعيد الأجندات السياسية للأنظمة العربية، بل حتى بين النخب الثقافة والسياسية وبين الشعوب وفي داخل المجتمعات نفسها، الأمر الذي ربما تجلّى، بدرجة كبيرة، في الموقف من إيران والقوى المرتبطة بما يسمّى «محور المقاومة»، وما نراه من تجاذب كبير حوله، لكنّه لا يتوقف عند ذلك، إذ يمسّ عديداً من الأحداث والقوى والقضايا الرئيسية في عالمنا العربي اليوم. المشكلة الأولى في الأزمة الفكرية العربية، في هذه اللحظة، المقصود في ما يتعرّض له الفلسطينيون واللبنانيون من عدوان إسرائيلي سافر، أنّنا نتجاوز التوصيف الدقيق الواقعي لما يحدُث، ولدراسة الديناميكيات الفاعلة، وننتقل مباشرةً في سجالاتنا إلى المواقف المعلّبة، وتسطيح المشهد والتعامل بمنطق عاطفي؛ سواء مع إيران وحلفائها أو قوى إقليمية تابعة لها أو ضدّهم على السواء. تميل تعليقات وتحليلات عربية كثيرة، تخبوياً وشعبياً، إلى التعميم والمواقف المطلقة، وهو أمر لا يخدم بناء، منظور فكري استراتيجي قادر على الإجابة عن أسئلة رئيسية ومهمة، تعطي عمقاً لأي نشاط سياسي أو مواقف سياسية، فالسياسة بلا إطار فكري أشبه بالعمل بلا خريطة طريق وأهداف مرسومة ومدروسة سابقاً!

خذ، مثلاً، الموقف من حزب الله وإيران وما يحدث اليوم. نحن أمام تيارين رئيسين كبيرين، وحالة استقطاب شديدة، يرى الأول أنّ إيران عنوان المقاومة والمواجهة مع المشروع الصهيوني والإسرائيلي والأميركي الأشمل، وهي التي تتصدّى لهم، بينما الدول العربية في سباتٍ عميق. وبالتالي، يجري تبرير ما تقوم به إيران من هيمنة إقليمية على حساب الدولة الوطنية، في العراق ولبنان وسورية، والروح الطائفية التي حرّكت إيران، ومعه حزب الله في ملفاتٍ عديدة، بخاصة اللبناني والسوري، ذلك كلّه يسقط لدى هذا التيار الفكري بذريعة أنّ إيران هي الطرف الإقليمي الذي يتصدّى لإسرائيل ويتبنّى خيار المقاومة ويساند حركة حماس.

على الطرف الآخر، ثمة من يرى إيران وحزب الله والقوى المختلفة، من منظور طائفي أو عِرقي، ومن يرى إيران ليست إلا دولة تبحث عن مصالحها القومية، وتريد أن تكرّس نفسها قوة إقليمية، وأنّها مع حزب الله قاما بمجازر بحق الشعب السوري، وأنّ إيران تتعامل مع كل هذه القوى والملفات بوصفها أوراقاً في اللعبة الإقليمية لتستخدمها في الصفقة السياسية، وفي ترسيم موازين القوى في المنطقة. الطريف أنّ لإيران فعلاً الوجهين السابقين، وهذا طبيعي في الشؤون السياسية والدولية، والظواهر السياسية تتسم عموماً بدرجة كبيرة من التعقيد، وعصيّة على التسطيح. وبالتالي، من الخطأ أن نأخذ جانباً واحداً أو أن نقيس الأمور بمنطق الأبيض والأسود، الخير والشرّ، في التعامل مع الساحات الدولية والإقليمية والمصالح الاستراتيجية، فاللون الرمادي سيد المشهد، بخاصة في مثل المشهد الحالي في العالم العربي، إذ تتداخل الأبعاد الدينية والسياسية والاقتصادية بصورة كبيرة في الوقت نفسه! الحال نفسها يمكن أن تنطبق على ما نراه من جدال وسجالٍ بشأن الموقف من طوفان الأقصى وما بعده، هل مثّل منعرجاً إيجابياً خدم الشعب الفلسطيني والحالة العربية أم العكس شكّل نكسة أو نكبة أخرى للفلسطينيين وأطلق المارد الخطير الصهيوني، الذي كان ينتظر أبنائهم لدراسة الحقوق، كي يتعرفوا إلى القوانين ويتمكنوا من وضعها: «لن يحتاج البلد حتى لمحام واحد خلال المائة عام المقبلة». كان هذا القول في منتصف القرن العشرين تقريباً. عدد المحامين في البحرين، وقد بتنا في القرن الحادي والعشرين، يُعَدّ بالآلاف لا بالمئات. تُرى كيف سيكون الحال لو بقيت الكلمة لمثل هذا المستشار؟

حين كتب فرانز فانون، مؤلف «معذّبو الأرض» و«بشرة سوداء، أقنعة بيضاء» استقالته من مستشفى بليدة بالجزائر الذي كان يعمل فيه طبيباً نفسياً، فترة الاستعمار الفرنسي، قال فيها: «المشروع الكولونيالي في الجزائر مشروع إلغاء دماغ شعب بصورة منهجية». أيّ مدى من الشجاعة يمتلكه ورثة الإمبراطوريات الاستعمارية اليوم في الإقرار بما اقترفته أيادي أسلافهم من تجهيل وإفقار أمم بكاملها، ما زالت عاجزةً عن كسر دائرة التخلف حتى اللحظة؟

التآكل الأخلاقي للعالم بعد غزّة

عبدالله هداري

يحكي الناقد والأديب الهندي الشهير بنكاج ميشرا في دراسته القيّمة «الحرقة بعد غزّة»، التي نُشرت في مجلة London Review of Books (Vol. 46 No. 6 · 21 March 2024)، أنه زار إسرائيل وهو في سنّي البراءة الأولى، بحثاً عن أجوبة لسؤالَين وصفهما بأنهما محيّران: «كيف تستسيغ إسرائيل تنزيل كل سلطتها بشكل رهيب وقاسٍ على الفلسطينيين لتسلبهم حياتهم ومصيرهم؟ وكيف تستسيغ النخب السياسية والإعلامية والصحافية الغربية تجاهل، بل وتبرير، القسوة والعنف المنظم والفاضح الذي تمارسه إسرائيل؟».

تكللت زيارة ميشرا هذه، إلى جانب تنقيبه المعرفي المستفيض في المسألة، بتحصيل أجوبة حاسمة وخطيرة، تصبّ كلها في ما أسماه الفيلسوف اليهودي البولندي زيغمونت باومان «مراحل التآكل الأخلاقي»، التي كان قد وصف بها إسرائيل من قبل، بعد أن أمضى فيها هو الآخر ثلاث سنين في السبعينيات، سيفرّ بعدها مما أسماه «المزاج العدواني».

مجرد تحوّل هذين السؤالين إلى قضية فكرية ملحّة، في حد ذاته، مؤشّر على بلوغ القضية الفلسطينية اليوم، وبالأخص بعد لحظة 7 أكتوبر، نقطة التحول الكبرى، لأنها صارت معبراً واضحاً عن عمق أزمة الأخلاق العالمية، وحسب خلاصات ميشرا، فإن إسرائيل لم تعد تهدّد وجودها فحسب، بل تهدد كل المؤسّسات والقيم التي نُشّئت بعد 1945، أي بعد الحرب العالمية الثانية، تلك القيم التي كانت تمثّل الأمل في تجاوز زمن المآساة والدمار في أوروبا وعدم تكرار ما حصل، سواء في المحرقة أو غيرها من كوارث. لا يتوقّف ميشرا عند هذا الحد من الخلاصات، بل سيجد في مسألة النظر إلى إسرائيل جهة أخلاقية مفتاحاً لفهم هذا التضامن الغربي اللامشروط مع آلة الإبادة الصهيونية، فالقصة كما يعلم الجميع بدأت مع ثقل الذنب الأخلاقي تجاه معاناة اليهود من المحرقة على يد النازية الألمانية، التي حوّلها الغرب فيما بعد إلى سردية تصوّر إسرائيل بوجه أخلاقي سام، يقع فوق المساءلة والمحاسبة، بل ولا يمكن تصوّر أن يكون طرفاً معتدياً على الإطلاق. وهي السردية التي تلحظ جميع الشعوب الغربية والإسلامية نجاحها على المستوى الغربي في الحفاظ على مساندة مستقرة للكيان الصهيوني، سردية نعلم جميعاً أنها قد بدأت في التآكل منذ فترة طويلة، جرّاء الاعتداءات اللاإنسانية على الفلسطينيين، وتهجيرهم من أراضيهم واغتصاب أعمارهم ومستقبلهم، إلى جانب تعذيبهم في سجون الاحتلال.

يبيّن ميشرا أن التاريخ يعلمنا درساً مهماً، وهو الإمكان المفتوح دائماً لتحوّل ضحايا الأمس إلى جلادي اليوم، وقد سبق للأمر أن تكرر مع جهات مختلفة وظفت العنف المنظم تجاه من تراهم تهديداً لكيانها السامي والشوفيني، مثل يوغسلافيا السابقة، وروندا، وسيريلانكا، وأفغانستان، إلخ. أما إسرائيل، فهي أيضاً نتيجة مسار من الإذلال التاريخي، غلفه الغرب بالاستثناء الأخلاقي، ليمحو ذنبه وخطيئته تجاه اليهود، فمنحها المبرر الكامل في إبادة من تراهم مهدداً لوجودها، دون اعتبار لأيّ من القيم الإنسانية، ودون النظر إلى فداحة الجرم المقترف في حق الفلسطينيين الذين سُلبت أرضهم وحقوقهم، إننا أمام عقدة أخلاقية متضخمة، باتت ورماً يهدد كل القيم الديمقراطية التي يتبجح بها الغرب، وحسب ماريك يونغ، الخبير في مركز كارنيجي للشرق الأوسط (الاستثناء الإسرائيلي لا يمكن تبريره، 2024/8/19)، إن ما تفعله إسرائيل يتهدد نفوذ الدول الغربية، وسيخلّف تداعيات جيوسياسية جسيمة في المستقبل القريب، ستجعل من جميع الدول، وبالأخص الجنوبية، لا تجد أي مسوغ في قبول السردية الغربية المتعلقة بالديمقراطية وحقوق الإنسان، وقيم العالم الحر.

عند النقطة، أنفة الذكر، تأتي لحظة 7 أكتوبر، التي ستكشف عن النرجسية القاتلة لصورة الوحش الإسرائيلي، من ويدرك الحكّام العرب بغالبيتهم أنّ السلام سينزع من أيديهم ورقة المزايدة على شعوبهم بتحرير فلسطين، والتي بسببها جرى ويجري تأجيل استحقاقات بناء الدول الوطنية القائمة على المساواة والعدالة والحرّية وسيادة القانون، جرّبت منطقة المقاومة المقاومة والممانعة بطرق مختلفة، فلم تصل إلى مبتغاها المنشود في التحرير وفي بناء الدول أسوة ببقية الشعوب، والآن يُجرى تأهيلها بمستقبل واعد، إذا ما تخلّت عن أحلامها بالحرية والكرامة، مستقبل يقوم على التمتع بمباهج الحياة بعيداً عن السياسة، أي تخليهم عن حقهم باختيار حكّامهم. يعني استمرار النهج الراهن والمعزز بحلف الأنظمة مع إسرائيل ضد شعوبها أنّ المنطقة لن تستقر نهائيّاً، وإن سكنت، أو بدا أنها قبلت الهزيمة وتجرّعت مرارتها إلى الأبد، هذا هو الاستقرار الموهوم الذي لا ترى إسرائيل غيره ويشاركها فيه كثيرون من حكام المنطقة، لكنّه استقرار مؤقّت وليس نهائيّاً، لأنّه يحمل في أحشائه بذور الانفجار من جديد.

(كاب سوري في برلين)

> التفكير في مسألة النظر إلى إسرائيل من الجهة الأخلاقية سيكون من أهم حقول المعرفة الإنسانية المعاصرة مستقبلا

دون أن ننسى أن العالم قد عاين قبل ذلك بقليل الحرب الروسية على أوكرانيا، فتشكلت في الأذهان، بوضوح تام، ومن دون لبس، أزدواجية المعايير الغربية، وتأكد من جديد التهديد الإسرائيلي لمنظومة القيم الأخلاقية العالمية.

يطالب مايكل يونغ، بصفته واحداً من النخبة الغربية، وأحد الغيورين على قيمها، بعدم منح إسرائيل صفة الاستثناء، بل يؤكد أنه لا يمكن لها أن تكون كذلك، فقد بات واضحاً أنها عكس ما رُوِّج عنها أخلاقياً، وبأن نسب التآكل الأخلاقي قد أصابت سردية الغرب عن المحرقة وصورة اليهودي العالمية في مقتل، فنحن نعيش اليوم لحظة ما بعد 7 أكتوبر، التي تحولت فيها القضية الفلسطينية إلى سؤال مؤرّق للضمير العالمي، لأنها أرجعتنا مجدداً إلى النقطة الصفر، وسؤال «ما العمل؟» مجدداً، وضرورة التفكير في إعادة بناء منظومة القيم العالمية اليوم، تلك التي اعتقدنا أننا قد أرسينا دعائمها عبر مؤسسات ومواثيق دولية عديدة، حتى لا يتكرر ما سبق أن حدث، لكن المأساة، أن ما تكرر اقترفته يد ضحايا الأمس. أشار عزمي بشارة في مقالته «قضايا أخلاقية في أزمنة صعبة» (2023/11/12) كيف تتعقّد السردية الإسرائيلية والغربية سالفة الذكر الخلط بين الفلسطيني والنازي، اقتباساً من لحظة المحرقة، والخلط أيضاً بين الفلسطيني والإرهابي اقتباساً من سردية الحرب على الإرهاب العالمي، غير أننا سنعود لنؤكد أنها سرديات متآكلة اليوم، فما اقترفته إسرائيل تجاه الشعب الفلسطيني بعد 7 أكتوبر، يقول ميشرا، قد أنسى العالم يوم 7 أكتوبر نفسه.

يستعير ميشرا عبارة للروائي والناشط الأميركي جيمس بالدوين، في ما أسماه «الصمت المُدين» التي تناسب كلياً وصف واحد (يقول الكاتب) من الغاز العالم المعاصر، المجسد في البرودة والقسوة التي يبديها الرئيس الأميركي جو بايدن تجاه الفلسطينيين، ليضاف إلى قائمة الألغاز المعاصرة التي يحاول عبثاً الإعلاميون والصحافيون والساسة الغربيون الاستمرار في تحنيطها عبر قسوتهم وجبنهم ورقابتهم العدائية لمستقبل الإنسانية، خلاصة القول، التفكير في مسألة النظر إلى إسرائيل من الجهة الأخلاقية سيكون من أهم حقول المعرفة الإنسانية المعاصرة مستقبلاً، سنُنتج رؤى فلسفية وسياسية وفكرية ودينية عديدة أيضاً، التي ستعيد تشكيل موقفنا من قيم عالم ما بعد 1945، وإذا كان الأديب الهندي العالمي، بانكاج ميشرا، قد عقد مقارنات بين قوميته الهندوسية والصهيونية اللتين ظهرتا في اللحظة التاريخية نفسها أواخر القرن التاسع عشر، وتولدتا أيضاً عن عقدة الإذلال والإبادة، وكيف تحولتا إلى عرقية عنصرية معادية للقيم الإنسانية، فإنها، من دون شك، ستستدعي لحظة التفكير شديدة الحساسة والعالمية هذه، جل المثقفين والمفكرين والساسة والخبراء والأدباء وفلاسفة العالم العربي والإسلامي، إلى الانخراط في عملية التفكير هذه، وكشف زوايا النظر التي تخص شعوبهم وثقافاتهم، لتكمل زوايا النظر العالمية الأخرى.

(كاتب مغربي)

لبنان ودبلوماسية حافّة الهاوية

بشرى المقطري

يُكشف مشهد الحرب في لبنان سردية العدوان والقتل والتدمير، بحيث يعيد، على نحو ماساوي، فصول الإبادة التي ارتكبها الكيان الإسرائيلي ولا يزال في قطاع غزّة والضفة الغربية. وبموازاة هذا المشهد اللاإنساني، تتكشّف دبلوماسية حافة الهاوية التي يدير وفقها الفاعلون الصراع الإسرائيلي الإيراني في المنطقة، والذي بات يحتل الأولوية على حساب حشد موقف دولي وإقليمي يوقف آلة القتل الإسرائيلي في لبنان، والتي تعني، في ظل هذا الواقع، إحداث مأساة إنسانية جديدة. على نحو لافت، تُظهر الحرب في لبنان المعطى اللاأخلاقي الذي تُبنى عليه سياسات إدارة الصراعات في منطقة الشرق الأوسط، فبموازاة إرهاب الدولة الذي يمارسه الكيان الإسرائيلي على اللبنانيين منذ نحو ثلاثة أسابيع، بهدف القضاء على البنية العسكرية لحزب الله، وكيل إيران، تنشط دبلوماسية برغماتية تدير الصراع الإسرائيلي -الإيراني بمقتضى شروط القوة وحدود الردع بعد استهداف إيران إسرائيل مطلع شهر أكتوبر/ تشرين الأول الحالي، مع بقاء الحالة الصراعية كما هي، تزكّيت على ذلك إزاحة الحرب في لبنان إلى الهامش، باعتبار ذلك مستوى ثانوياً للصراع الإسرائيلي - الإيراني، وتتباين أدوات هذه الدبلوماسية وأهدافها، سواء في ما يخص إسرائيل وحلفاءها الغربيين أو ما يخص إيران.

حيث تكون أهداف إسرائيل متعينة، ويغض النظر عن انتهاك القانون الدولي أو نتائج أهدافها على السلم في المنطقة، تكون الولايات المتحدة الأداة التي تحقق بنك الأهداف المتغيرة لحليفها، بوسائل عسكرية أو دبلوماسية، فالترابط التكاملي بين الحليفين لا يميز طبيعة الأدوار والوظائف وحدود العلاقة البينية، وإنما يفترض خوض حرب وجودية دفاعاً وإسناداً لإسرائيل مهما كان الثمن. وإذا كانت حرب الكيان الإسرائيلي على قطاع غزّة، على مدى عام، كشف ويلاً مراء طبيعة الإسناد الأميركي ومستوياته، وإن شابه خلاف بين الحليفين في الأدوات، فإن الحرب في لبنان شكّلت انكشافاً آخر لطبيعة هذا الإسناد والتعزيز، وإن بصورة أعمق، فإلى جانب الشرعنة لحربه في لبنان وتوسيع بنك أهدافه التي لا تقتصر على استهداف بنية حزب الله وقياداته، بل تنفيذ عمليات تستهدف قادة الفصائل الفلسطينية، فإن تأمين إسرائيل من التهديدات الإقليمية فرضت مستوى آخر من الإسناد بدخول أميركا شريكاً في هذه الحرب، بدءاً بالتصدّي للهجمات التي تطاول إسرائيل من إيران ولحلفائها في المنطقة، إلى توفير الأرضية السياسية لمضي إسرائيل في تحقيق أهدافها في لبنان، وذلك بتعطيل أي دبلوماسية نشطة، تهدف إلى وقف إطلاق النار، قبل أن تؤدّي المعارك إلى إنهاك حزب الله، ومن ثم تغيير المعادلة السياسية في لبنان، وربما طبيعة النظام الذي يشكّل حزب الله طرفاً مؤثراً فيه، وهو ما تتقاطع عنده أهداف الحليفين، وكذلك منافسي إيران في المنطقة. إضافة، وهو الأهم، وبموازاة استمرار الحرب في لبنان، تحرص الإدارة الأميركية على ضبط الصراع بين إسرائيل وإيران عند حافة الهاوية مع تمكين حليفها من الردع مقابل تطويق انجراف المنطقة إلى حرب شاملة، بالتوافق مع حليفها بشأن طبيعة الرد العسكري على إيران وحدوده، ومن ثم تنسيق عملياتهما المشتركة في ضوء الأهداف الإسرائيلية، إلا أن الإدارة الأميركية قد تخاطر بتبني دبلوماسية غير موثوقة النتائج إلى جانب تداعياتها الكارثية، فإلى جانب تجاهل استمرار حرب الكيان الإسرائيلي في لبنان، وتفاقم الوضع الإنساني، ما يجعلها شريكة في هذه الجرائم، تكرّس هذه الدبلوماسية المختلة حالة الصراع في منطقة حيوية واستراتيجية، كمنطقة الشرق الأوسط إلى أمد بعيد، وما تترتّب عليه من تداعيات اقتصادية على الاقتصاد العالمي، كما أن حدود الردع الإسرائيلي ضد إيران يظل محل اختبار الإدارة الأميركية في وقت حرج، إذ إن التزام حليفها بتقييداتها، وإبقاء مخاوفها، وبالطبع مصالحها الحيوية في المنطقة قد يعيقه تباين آليات الردع وحدودها، وأيضاً حالة الفراغ السياسي الحالي مع قرب الانتخابات الرئاسية، ما يعني ضعف تأثير الضغط الدبلوماسي على قرارات حليفها، وإن كانت ستلتزم بخيار الدفاع عن إسرائيل، أيا كانت طبيعة الجولة القادمة مع إيران.

في المقابل، تفرض ديناميكية الصراع مع إسرائيل، ونطاقات الردّ العسكري المرتقب ثقلها على السياسة الإيرانية في الوقت الحالي، بتضمّنه أيضاً مسارات الحرب في لبنان، وتأثيرها على الشكل التحالفي مع حزب الله، وعلى علاقتها بدول المنطقة، إذ إن إيران، وإن حققت أهدافها السياسية من هجومها أخيراً على إسرائيل، ولو بمحاولة موازنة سياسة الردع، وتطمين حليفها حزب الله الذي يواجه حملة اجتثاث غير مسبوقة، وأيضاً شبكة حلفائها في المنطقة، وذلك بقدرتها على إدارة الصراع مع إسرائيل، فإن استمرار حرب الكيان في لبنان، وبلا أفق زمني محدّد، يعني استنزاف حزب الله في معركة غير متكافئة من حيث القوة، ومن ثم دفعه إلى خوض حرب دفاعية مفتوحة، ومن ثم تعريضه لضغط عسكري دائم، إلى جانب ضغط الحالة السياسية في لبنان، والتي تعني في ضوء تعدّد الطوائف وتوزع ولاءاتها، انحسار الدعم الشعبي لإسناده في مواجهة العدوان الإسرائيلي. ومع أن إيران كيّفت استراتيجية جديدة للتعاطي مع هذه التحدّيات التي تستهدف نفوذها الإقليمي، وأيضاً تطورات صراعها مع إسرائيل، راوحت ما بين التلويح بالقوة وتأكيد استمرار دعم المقاومة الإسلامية في غزة ولبنان، وتسييج علاقات مع وكلائها، لكنها حرصت على تنشيط دبلوماسية وقائية تجنبها الصدام المباشر مع إسرائيل، لتقليص خيار معركة غير متكافئة لا يمكن قياس خسائرها، إما بإبادة تفاهمات غير مباشرة مع أميركا للضغط على حليفها الإسرائيلي وإما بتحييد الدول الخليجية، وتحديداً السعودية، في أي صراع مرتقب مع إسرائيل، إضافة إلى إعادة ضبط معادلة صراعها مع إسرائيل، انطلاقاً من القضية الفلسطينية، مع تأكيد وحدة ساحات المقاومة الإسلامية، وذلك عبر الدعوة إلى وقف إطلاق النار في لبنان وغزّة، ما يعني ربط الملفّين معاً، ومن ثم استثمارهما تفاوضياً، وهو ما تكشّف في مضامين زيارة وزير الخارجية الإيراني، عباس عراقجي، السعودية، والتوافق بشأن تحييد استخدام مجالها الجوي في أي هجوم ضد إيران وفي هذه الحالة القواعد الأميركية، مقابل التهديد ولو ضمنياً بخياراتها للرد العسكري في حال تعرّضها للهجوم، وإذا كان التوافق الإيراني - السعودي إقليمياً يتقاطع عند تجنيب المنطقة حرباً شاملة، فإن أولوياتهما مختلفة في ما يخص الحرب في لبنان، ومن ثم، تكشف دبلوماسية الاحتواء المبنية على مخاوفها وفي مقدّمتها تفادي مواجهة مباشرة مع إسرائيل ارتباك الدبلوماسية الإيرانية وتذبذبها، تجلى في مستوى سياسي آخر بتبني حزب الله، ولأول مرّة، مطلب وقف إطلاق النار مع إسرائيل، من دون ربطه بوقف إطلاق النار في قطاع غزّة، نزولاً كما يبدو لضغوط أطراف المعادلة اللبنانية، وربما لدبلوماسية الاحتواء التي تتبنّاها إيران، وبعيداً عن إمكانية وقف إطلاق النار في لبنان لم لا، تتحرّك إيران بموجب أولوياتها ومستويات إدارة صراعها مع إسرائيل.

في واقعٍ إقليميٍّ مضطرب، تبقى السيناريوهات غير واضحة، والاحتمالات مشروطة بقوة الردع الإسرائيلي وحدوده، الذهاب إلى حرب شاملة أم التراجع على حافة الهاوية، بحيث يظل ترقّب الردّ الإسرائيلي على هجوم إيران وتبعاته على الإقليم، والآلية التي سيتبعها الخصمان وحلفاؤهم في المنطق للردّ هو المسيطر على الوضع الإقليمي. وأيّاً كان السيناريو المظلم الذي تتحرّك فيه معادلة الصراع الإسرائيلي الإيراني في المنطقة، وقدرة الفاعلين على ضبط هذه الدبلوماسية، فإن المحزن ليس فقط أن آلة القتل الإسرائيلية تستبيح الجغرافيا، وتوسع من دمارها وقتلها المدنيين في فلسطين المحتلة، وسورية والعراق، ولبنان الآن، بل قد تطاول آلة القتل والتدمير هذه دولاً أخرى في المستقبل. وفي ضوء حمّى تبادل الردع والردع المقابل بين إسرائيل وإيران، تختزل المأساة اللبنانية إلى حالة صراع هامشي بين القوة الباغية وطرف محلي يدافع عن نفسه، ومهما كان خلافنا السياسي مع حزب الله، وأيضاً علاقته بإيران، فإسرائيل هي من فرض حرباً جائرة يدفع كلفتها المدنيون من القتل والنزوح إلى تقويض سبل الحياة الممكنة.

(كاتبة يمنية)

> حيث تكون أهداف إسرائيل متعينة، وبغض النظر عن انتهاك القانون الدولي، تكون الولايات المتحدة الأداة التي تحقق بنك الأهداف المتغيرة لحليفها

الشرق الأوسط الجديد بذور صراع متجدّد

حسان الأسود

تعيش منطقة الشرق الأوسط على وقع الحروب منذ أمد طويل، وهذا أمرّ فرضته ظروف تاريخية، يعود بعضها إلى الصراعات الدولية التي قسّمت المنطقة مع نهاية الحرب العالمية الأولى، وللإعاقات التي سبّبتها السيطرة الأجنبية أمام بناء الدول الوطنية بمفهومها الحديث القائم على المواطنة والمستند إلى الشرعية الداخلية، ثم كان زرع إسرائيل بمثابة الإسفين الأكبر المهدد لاستقرار المنطقة وتطوّرها. لعبت الانقسامات القومية والدينية والطائفية دوراً في انعدام الهوية الوطنية، وهذا الدور لم يكن دائمًا فقط، بمعنى أنّ النخب الحاكمة هي التي لم تستطع رتق الشروخ والفواتق الصعبة بين مكونات شعوب المنطقة، وبدلًا من أن يكون التنوّع نعمة أصبح نقمة.

أعادت الحرب العالمية الأولى تقسيم المنطقة العربية، فغيّرت الخرائط السياسية، ليس فقط الحدود عندما انتجت دولاً جديدة، بل غيرت الشعوب نفسها فانتجت معها شعوباً جديدة ومزّقت شعوباً أخرى، فابعدتها من امتداداتها الطبيعية، ومنعت شعوباً من بناء دولها المستقلة كما حصل مع الكرد. احدث هذا الواقع الجديد أحلافًا مؤجلة بإعادة تشكيل المنطقة، فالعرب الذين حلموا بدولة تضم الحجاز ونجد وإجزاء واسعة من الجزيرة العربية والعراق والشام الكبرى خُدعوا وزُميت أحلامهم في أدراج سايكس وبيكو. أما السوريين الذي انسّسوا دولتهم الوليدة بعد الثورة العربية الكبرى فقد وجدوا أنفسهم عرضة للتقسيم مجدداً، فأخذت تركيا منهم كيليكيا ودير بكر وانطاكية ولاحقًا لواء إسكندرون، وفُصل لبنان ثم الأردن وفلسطين إلى دويلات تحت الانتداب مؤقتًا وقيد الترسيم النهائي لاحقًا. يعود اليوم شبح التفتيت من جديد بوّابة الحرب الإسرائيلية على حركة حماس وحزب الله، والحقيقة أنّ إسرائيل ليست وحدها التي تريد القضاء على هذين التنظيمين، ثمّة دول عربية تريد ذلك. يثير تشابك المصالح والمواقف حيرة لدى كثيرين في هذا الخصوص، وعلى سبيل المثال، يرى غالبية السوريين أنّ تحطيم حزب الله يصبّ في مصلحتهم لما ارتكبه من خطأ استراتيجي بالوقوف إلى جانب نظام الأسد في حربه ضدّ ثورتهم، إضافة بالطبع إلى جرائمه الطائفية بحقهم. في المقابل، يرى هؤلاء أنفسهم أنّ انكسار «حماس» سيؤدي إلى انكسار الحلم الفلسطيني بالتحرر وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة.

إذا كان المشروع القادم إلى الشرق الأوسط سيثمر استقراراً أمنيًا بعد السلام سينزع من أيديهم ورقة المزايدة على شعوبهم بتحرير فلسطين، والتي بسببها جرى ويجري تأجيل استحقاقات بناء الدول الوطنية القائمة على المساواة والعدالة والحرّية وسيادة القانون، جرّبت منطقة المقاومة والممانعة بطرق مختلفة، فلم تصل إلى مبتغاها المنشود في التحرير وفي بناء الدول أسوة ببقية الشعوب، والآن يُجرى تأهيلها بمستقبل واعد، إذا ما تخلّت عن أحلامها بالحرية والكرامة، مستقبل يقوم على التمتع بمباهج الحياة بعيدًا عن السياسة، أي تخليهم عن حقهم باختيار حكّامهم. يعني استمرار النهج الراهن والمعزز بحلف الأنظمة مع إسرائيل ضد شعوبها أنّ المنطقة لن تستقر نهائيًا، وإن سكنت، أو بدا أنها قبلت الهزيمة وتجرّعت مرارتها إلى الأبد، هذا هو الاستقرار الموهوم الذي لا ترى إسرائيل غيره ويشاركها فيه كثيرون من حكام المنطقة، لكنّه استقرار مؤقّت وليس نهائيًا، لأنّه يحمل في أحشائه بذور الانفجار من جديد.

(كاب سوري في برلين)

> يعود اليوم شبح التفتيت من بوّابة الحرب الإسرائيلية على حركة حماس وحزب الله

كاريكاتير

سعد المهندي

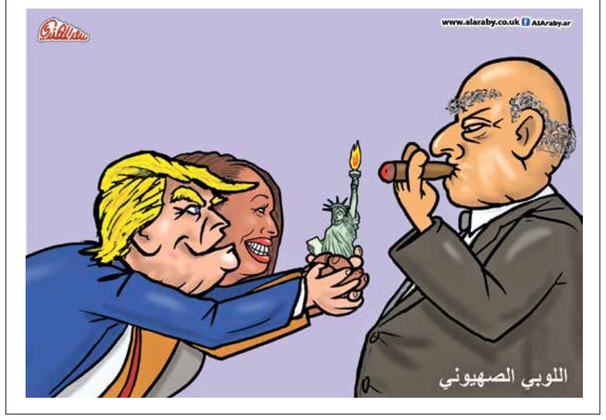

الشعب الممتحن في نخبته

صلاح الدين الجورشي

أغلق ملف الانتخابات الرئاسية في تونس، وفتح باب الأسئلة على مصراعيه. أولها ما الذي يجب أن يتغيّر في النخبة التونسية حتى تستعيد قدرأ من عافيتها وهيبتها، وحتى تتمكّن من أن تضع أقدامها على أرض الواقع، وتقرأ بعيون مفتوحةٍ رموز المشهد الراهن، فالطرف الخاسر والمصدوم بعد انقضاء الانتخابات هو النخبة العالة بدرجة أساسية. حتى الذين اختاروا المقاطعة، وبقوا يتابعون المشهد عن بعد، فاجأتهم النهاية، لم يقع تز

ما أنهى حرب 2006 يساعد في إنهاء الحرب حالياً

طارق متري

يُؤتى في إسرائيل والولايات المتحدة على ذكر مآلات الحرب والإشارة «لبنان جديد» ينحسر فيه نفوذ لحزب الله أو يغيب. كما نسمع على لسان رئيس حكومة دولة الاحتلال، نتنياهو، كلاماً عن «إعادة تشكيل» الشرق الأوسط. وفي مقال له في ذي إيكونوميست» البريطانية يوم الخميس (10 أكتوبر/ تشرين الأول)، يكتب زعيم المعارضة الإسرائيلية ياير لابيد عن ضرورة إعادة بناء لبنان وجيشه باشراف دولي. وفي المجلة نفسها، نقرأ مقالاً للأكاديمي والسياسي والوزير اللبناني السابق، طارق متري، الذي أسهم في 2006 وباسم الحكومة اللبنانية في الوصول إلى قرار مجلس الأمن 1701 وصياغته.

وكانت المجلة دعت متري لإبداء وجهة نظره، حرصاً منها على نوع من التوازن بين المواقف.

■■■

أصبح لبنان مرّة أخرى ساحة للقتل عند إسرائيل، فقد ألحقت الغارات الجوية، والتوغل البرّي، أذى كبيراً بالمدنيين اللبنانيين. لذا، فإن النظر إلى الهدف المعلن لإسرائيل، تدمير حزب الله بالكامل، بوصفه وسيلة نحو السلام، أمرٌ مضلّل، وهو يصوّر حزب الله من منظور ضيّق للغاية. بدلاً من ذلك، هناك أمل، بشرط توفّر ضغط أميركي، في التوصل إلى وقف إطلاق نار دائم يعتمد على الخطة التي أنهت الحرب مع إسرائيل في عام 2006، وتجسّدت في قرار مجلس الأمن رقم 1701.

تفيد تقديرات حكومية بأن الصراع الحالي أدّى إلى نزوح 1,2 مليون لبناني، وهو ما يقترب من ربع السكان. ومع استهداف الغارات الإسرائيلية الجوية الزعماء العسكريين والسياسيين لحزب الله، قُتِل أكثر من ألفي شخص وجُرِح عشرة آلاف. ولم يسبق في أي حربٍ عرفها لبنان أن قُتل في عملياتها العسكريّة هذا العدد الكبير من عمّال الإنقاذ ورجال الإطفاء والمسعفين. وفي جنوب لبنان، جرى تهجير السكّان في عدة قرى، وسُوّيت بعضها بالأرض. وكما حدث في غزّة، أثبت الجيش الإسرائيلي عدم اكتراثه بالقانون الإنساني الدولي، خاصة ما يتصل بمبدأي التناسب والتمييز بين المقاتلين والمدنيين.

ولكن، ماذا بقي في هذه المرحلة من حزب الله وقدراته؟ لعلّ قياداته مشوّشة وهي تواجه مشكلاتٍ مرهقة في التواصل والتنسيق، ولكن حزب الله ليس مجرّد منظمة عسكرية. وهو لن يختفي في كل الأحوال، فمن الخطأ الجسيم أن تصوّره إسرائيل، وكذلك أعداء حزب الله الآخرين، مجرّد جزء من شبكة تابعة لإيران. لأنه، بالإضافة إلى بنيته العسكرية، حزبٌ لبناني قوي يتمتّع بتمثيل سياسي واسع، وهو يدير مجموعة من الأنشطة المدنية والاجتماعية وشبكة ضخمة من المؤسّسات التعليمية والصحية، ولا يمكن إنكار شعبيّته الكبيرة ليس فقط بين المسلمين الشيعة في البلاد، بل بين عموم اللبنانيين. ولذلك، لا يعتقد لبنانيون كثر أن هزيمة حزب الله تشكّل بالضرورة مكسباً لهم. ومن الواضح أن لبنانيين عديدين، ربما كانوا أغلبية، يشكّكون في قرار الحزب المجازفة بجرّ لبنان إلى حرب شاملة، وهم حالياً يلومونه في إثارة غضب إسرائيل. ومع ذلك، لا يرى أغلب اللبنانيين في الإسرائيليين محرّرين لهم.

كان القرار 1701 محترماً بنسبة عالية طيلة 17 عاماً، ورغم أن حزب الله لم ينسحب من المنطقة الواقعة جنوب الليطاني، لم يكن وجوده ظاهراً، ولم يحدُث أي انتهاك جدّي لوقف الأعمال العدائية. ولكن هذا تغير في أكتوبر/ تشرين الأول من العام الماضي. وأعتقد أن تنفيذ جميع الأطراف القرار 1701 يشكل اليوم شرطاً ضرورياً، وإن لم يكن ربما كافياً، لوقف إطلاق النار الدائم.

لا ينفصل السلام في جنوب لبنان عن استعادة لبنان سيادته على أراضيه، وسوف يتطلب ذلك إنشاء منطقة بين الخط الأزرق ونهر الليطاني، خالية من أي مسلحين أو معدّات أو أسلحة غير التي التي تخصّ الحكومة اللبنانية. ولا بد من

> حتى لو لم يؤيد لبنانيون عديدون حزب الله ونشاطه العسكري ضد إسرائيل، فإنهم يجمعون في استيائهم إزاء العقاب الجماعي

تعزيز قوة الأمم المتحدة (يونيفيل) وتأكيد سلطتها على «اتخاذ كل الإجراءات اللازمة» حيثما يجري نشرها. ومن الأهمية بمكان أن يؤدّي الجيش الوطني دوراً أكبر في بسط سلطة الحكومة اللبنانية، وسوف يتطلب هذا دعماً دولياً كبيراً للقوات المسلحة اللبنانية، بما يتجاوز المساعدات الأميركية المحدودة، والتي غالباً ما تكون عُرضة للسياسة الداخلية الأميركية والرغبات الإسرائيلية. من المحتمل أن تخضع الأهداف العسكرية الإسرائيلية المعلنة للمراجعة في الميدان، كما حدث في غزّة، ما يُنذر بحرب إبادة مطلقة. ولكن الهزيمة الكاملة لحزب الله، مثل الانتصار الكامل على حركة حماس، سوف يبقيان بعيدي المنال؛ ففي الوقت الحالي، لا توجد أهداف سياسية واضحة في الأفق، وحتى لو لم يؤيد لبنانيون عديدون حزب الله ونشاطه العسكري ضد إسرائيل، فإنهم يجمعون في استيائهم إزاء العقاب الجماعي المفروض عليهم، وهم متّحدون في دعوتهم إلى إنهاء هذه الحرب.

يذكّرنا الوهم الإسرائيلي ببناء لبنان جديد وإعادة تشكيل الشرق الأوسط، والذي تجسّد في تصريحات عديدة لمسؤولين ومعارضين، بتجارب ماضية تثير الذكريات، نستحضر فيها الخداع الذي أصبح واضحاً بعد الحرب على العراق في عام 2003، والحديث في أثناء حرب عام 2006 في لبنان عن «مخاض ولادة الشرق الأوسط الجديد». ولكننا، منذ ذلك الوقت، لم نشهد سوى مزيد من العنف، ومزيدٍ من الخراب، ومزيدٍ من الفوضى. لقد حان الوقت للدبلوماسية ووقف إطلاق النار، ولضمان التنفيذ الصارم لقرار مجلس الأمن المطروح بالفعل على الطاولة، وذلك لن يكون لصالح لبنان وحده.

(أكاديمي ووزير لبناني سابق)

إلى أين مآل اعتصام الكرامة في الشمال السوري؟

أحمد مظهر سعدو

بدأ اعتصام الكرامة في الشمال السوري منذ الأول من شهر يوليو/ تموز الفائت، تضامناً وتعاضداً مع انتفاضة السويداء وجبل العرب وحراكهما، ومراكمة للعمل المناهض لنظام بشار الأسد، حينها لم يكن أحد (في تلك الآونة) يتوقع لهذا الاعتصام الاستمرارية أو الامتداد، بالنظر إلى صعوبة العمل، خاصة التظاهرات السلمية، في وجود فصائل معارضة عسكرية محيطة، ومسيطرة على المشهد الميداني بكليّته، وقد تعتبر بعض هذه الفصائل أن انتفاضة الناس سلمياً من الممكن أن تبدو وكأنها في مواجهتها، من أجل كبح جماح تغولها على الحالة المدنية في الشمال خارج سيطرة النظام، ومن ثم ربط مسألة الحراك والمناهضة، فيما تقوم به هذه الفصائل من أعمال وهيمنة، وفقط من حيث إن أي حراكٍ خارج إطارها، قد لا يكون من المسائل التي تفرحها أو تثلج صدرها، أو تكون راضية عنه، خصوصاً أن اعتصام الكرامة في الشمال السوري جاء بالتساوق مع حالة التطبيع التركي الماضية، رغم كثرة الصعوبات المتوفرة نحو إعادة العلاقة مع نظام بشّار الأسد، وردم الهوة الكبيرة بينهما، وإعادة فتح طرقات الترانزيت، وعودة اللاجئين السوريين، وتعميم الحالة الأمنية التي لا تقلق الأتراك، عبر تحرّكات مشبوهة وخطرة على الأمن القومي التركي، من حزب العمّال الكردستاني في شمال شرق سورية. لكن استمرار اعتصام الكرامة في الشمال السوري، واتساع رقعته، والعمل حثيثاً على صياغة (وإنتاج) أوراق ومناهج عمل، وخطط للمتابعة، وصولاً آمناً إلى اليوم التالي، الذي يلي الحراك والاعتصام، دفع بعضهم إلى تلمس رأسه، والتخوف من أن يصبح الاعتصام حالة شعبية كبرى قد تمتد إلى محافظة إدلب ومناطقها، وكل مساحات الشمال السوري وأريافه، وهو ما يحصل بالفعل حالياً، حيث نشهد حالة متميزة من الإصرار على الاشتغال والمراكمة والتطوير في آليات العمل، ووصل ما انقطع من علاقة مع باقي الساحات، ومنها محافظة السويداء وجبل العرب التي تجاوزت السنة ونيفاً في حراكها الشعبي المهم، وأنتجت ما أنتجت من فعلٍ جدّي مناهض ومنتفض ضد سلطات الطغيان الأسدي.

ما يلفت النظر هذه الأيام في حراك (واعتصام) الكرامة في الشمال السوري اشتغال ناشطيه حقيقة وبجهد متواصل، على إنجاز ما يمكن أن يؤسّس بالفعل لجسم سياسي تنظيمي يريد واقعياً أن يعوض كل ما فات ويتساوق وينسجم مع أهداف الثورة السورية التي انطلقت أواسط شهر مارس/ آذار 2011 ثورة الحرية والكرامة، وينتج شكلاً جديداً حداثياً من العمل المنظم، مستفيداً من تجارب السوريين السابقة، عبر العمل على ما سمّي «المجمع الانتخابي» في الداخل السوري، الذي يعوّل عليه متابعون كثيرون (ملء الفراغ) وإعادة الاعتبار لكينونة الثورة السورية وتغيراتها، ولجم كل المحاولات التي تعمل تحت الطاولة باتجاه وقف الحراك والاعتصام، وهو ما يضع الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة السورية أمام استحقاقات جدّية تشير إلى احتمالات وجود وانبثاق بدائل للمعارضة الرسمية السورية الموجودة حالياً، التي تعثرت كثيراً في غير مكان وجملة مواقف وتحرّكات، ثم وقعت كثيراً، قبل أن تتمكّن من فعل أي إنتاج جديد يواكب، بل يرتقي إلى مستوى الدم السوري المراق منذ أكثر من عقد، على يد المجرم المستبد بشار الأسد ومليشياته وتوابعه. وهناك من يتطلع حقيقة إلى احتمالات كبرى، فيما لو نجح الحراك والاعتصام، إلى ظهور جسم سياسي سوري معارض، ويمثل واقعياً، وليس شكلياً، كل الساحات السورية، وكل ألوان الطيف السياسي، وفسيفساء الحالة المجتمعية السورية، وهو ما يجعل المعارضة الرسمية السورية في حالة فوات وقلة حيلة ولا جدوى، أمام فعل جماهيري حقيقي على الأرض في الشمال السوري.

ولعلّه من المسائل المهمة والأكثر حنكة سياسية وإمكانية احتمالية للنجاح ما أعلنه المشاركون في اعتصام الكرامة أنهم ما زالوا يصرّون على أن العمل نحو إنتاج جسم سياسي سوري متماسك وهيئة عامة للحراك والثورة، لا بد أن يبقى محصوراً ضمن نشطاء الداخل السوري، انطلاقاً من فكرة تقول: إنه لا يمكن أن تنجح أية ثورة تعتمد

> أعلن المشاركون في اعتصام الكرامة أنهم يصرّون على العمل نحو إنتاج جسم سياسي سوري متماسك وهيئة عامة للحراك والثورة

على الخارج، أو أن توجد في ساحات الدول خارج سورية، لأنها سوف تتأثر بالضرورة بمصالح تلك الدول، وأيضاً في سياساتها، وهذا ما سيعيد إنتاج إشكالات المعارضة السورية وعثراتها، وسيجعل حالة وإمكانية الخروج من عنق الزجاجة، صعباً للغاية، بل مرتبطاً في جملة حالات التطبيع الجارية الآن مع نظام بشار الأسد، وتلك المصالح الإقليمية المنجدلة معه.

يبدو أن اليوم التالي لاعتصام الكرامة في الشمال السوري، وفيما لو تمكن واقعياً من إنجاز المأمول منه، ثم إعادة تأسيس بدايات العمل لإنتاج الجسم التنظيمي المراد، خاصة لو تمكن من التمسك باستقلاليته، وعدم الارتهان كلية للضغوط المحيطة به، حيث تحاصرهم الفصائل العسكرية من كل حدب وصوب، ولو استطاع أهل الاعتصام الاستفادة عملياً من حالة الخلاف الموجودة بين الفصائل، وأيضاً مع الحكومة السورية المؤقتة، ومن ثم الائتلاف الوطني، فيمكن إبّان ذلك أن يؤمل منها ما هو جديد لتعود الهوينى إلى عملية بناءات جديدة، وقادرة على تكوين حالة تنظيمية متماسكة ورصينة، حيث (وحتى الآن) فشلت كل المحاولات التي سبقت ذلك من أن تؤتي أُكلها ضمن واقع وحالة الاستنقاع السوري الصعب.

تشكيل الهيئة العامة المنتخبة للثورة السورية المنبثقة عن فعل الاعتصام المشار إليه، بعيداً كل البعد عن تلك المحاصصات، التي سبق أن عانت منها كثيراً أجسام المعارضة، وإعادة رسم ملامح مستقبل جديد للسوريين، يساهم في أن تدخل الثورة السورية عامها الجديد بعد أشهر قليلة، وهي أكثر تفاؤلاً وتطلعاً إلى المستقبل الأفضل، حيث يمكن أن يعطي ذلك أملاً متجدّداً نحو مستقبلات أرحب للسوريين، وحيوات أنجح لكل الشعب السوري، في كل الساحات، مهما كانت المعاناة من عسف وقمع واعتقال مستمرّة من نظام بشار الأسد المستبد.

(كاتب سوري)

فلسطين... عن الحل الأخير معكوساً

هدى الفاتح

تخيّل كيف ستكون حياتك صعبة، لو كنت محاصراً وسط جيرانٍ لا يخفون عداءهم لك، ويرفضون الاعترافَ بما تعتبره ملكيّة خاصة بك، لأنهم كانوا شهوداً عليك وأنت تسرق وتقتطع من أراضيهم. الطبيعي أنّك ستكون متوتّراً ومذعوراً وخائفاً من لحظة انتقام مباغت، كما أن الطبيعي أنك لن تحاول أن تُغضب أولئك الجيران، بل ستحاول كسب تعاطفهم وتحييد مشاعرهم. ما يحدُث مع الكيان الإسرائيلي الطارئ هو العكس تماماً، فهو لم يرضَ، منذ فُرض على المنطقة، بالحدود التي منحتها له القوى الدولية التي رعته، بل ظل يحلم بالتوسّع، مستنداً إلى سند «المجتمع الدولي»، واستمرّ في ذلك حتى ابتلع الجغرافيا الفلسطينية، التي مُحيت من على الخرائط الدولية، فاسحةً المجال لدولة أمر واقع يتزايد عدد المعترفين بها. يبدو كل شيء معكوساً ومفارقاً للضمير في القصة الفلسطينية. يتحوّل الاحتلال دولة تحظى بالدعم والاحترام، ولا يخجل الجميع من التحدّث عن حقها في الدفاع عن نفسها وعن «أراضيها». أما فلسطين الأصل فتتحوّل إلى مجرّد كيان شبه سياسي منزوع الإرادة ولاهث وراء الاعتراف به، والحصول على أي مقعد في الصالون الأممي. نعيش اليوم هرم المفارقات وقمّة العبث اللائق بمسرحية سريالية، حين يتحوّل سارق الأرض إلى بلطجي لا يتورّع عن بسط اعتداءاته والمضي في محاولاته للقضاء على جميع من يرى أنهم يُعيقون طموحاته أو يذكّرونه بماضيه.

على المسرح العربي، يحتفل الإسرائيليون بمرور عام على أحداث 7 أكتوبر بالطريقة التي يجيدونها، فيواصلون عمليات الإبادة الجماعية والتهجير في غزّة وعمليات القصف المركّزة في مناطق مختلفة من لبنان، بل وتمتد صواريخهم لتصل إلى حدود اليمن ولتهدّد دولة ذات ثقل إقليمي كإيران.

إذا قدم إلى عالمنا أي شخص بشكل مفاجئ من زمان آخر سوف نجد صعوبة بالغة في أن نشرح له كيف يُمكن لكيان صغير المساحة وقليل السكان، مقارنة بمعظم دول الإقليم، أن يُشكّل تهديداً جادّاً للمنطقة، التي باتت تحسب له كل حساب. الصورة قاتمة، والجيوش الجرّارة تبدو عاجزةً عن إيقاف العدوان، فيما تكتفي أنظمة «شقيقة» بالعمل على ضمان ألا يصل الشر الإسرائيلي إلى حدودها، وألا تُساهم الفوضى ونذر الحرب الشاملة في زلزلة كراسي حكمها، ولو كان ثمن هذا تواطؤاً مفضوحاً وخذلاناً واضحاً.

فيما يلوم كثيرون حركة حماس على العملية، التي قامت بها العام الماضي، والتي يرون أنها تسبّبت في إشعال المنطقة وفي مأساة راح ضحيتها عشرات آلاف من الأبرياء، يمكننا أن نرى الأمر من زاوية أخرى تتمحور حول حرب إسرائيلية إيرانية كانت تنوي تل أبيب شنها والمضي بها إلى نهاياتها، بغضّ النظر عن واقع الأحداث. كان ذلك يظهر في التهديدات الإسرائيلية الصريحة، التي سبقت كل هذه الأحداث بوقت طويل، وكانت تتحدّث عن ضرب إيران وتفكيك مشروعها النووي بكثير من التضخيم والمبالغة، حوّل الإسرائيليون أحداث 7 أكتوبر إلى نقطة فاصلة في تاريخ الصراع، مع ما أطلقوا عليه اسم «الإرهاب العربي»، وهم يسيرون في ذلك في مسار الولايات المتحدة التي كانت تعاملت مع هجوم «11 سبتمبر» (2001) بوصفه مبرّراً لغزو دول ولشن حرب بلا حدود ولا سقف.

باستغلال التعاطف النادر، الذي وجدته من معظم قيادات العالم، التي دانت الهجوم على «المدنيين»، مضى الصهاينة إلى القيام بخطوة أكبر لتحقيق هدف تصفية القضية الفلسطينية والقضاء، ليس فقط على جيوب المقاومة، وإنما على حاضنتها الشعبية، التي يرون أنها تشمل كلّ الشعب الفلسطيني. وفق المنطق الصهيوني لا أحد بريء، لأنّ أي فلسطيني هو إما مقاوم وإما متعاطف مع أعمال المقاومة. يدخل في هذا النساء والأطفال، الذين لن يكونوا، في أغلب الأحيان، سوى ثمار لمقاومة مستقبلية. يغضب الصهاينة من وصفهم بالنازية، لكنهم يعملون، في الوقت ذاته، على التذكير بالإرث النازي، من خلال الطريقة التي ينظرون بها إلى شعوب المنطقة.

> من العبث والحماقة الطاغية محاولة القضاء على جميع الجيران خشية التهديد

طريقة التعامل مع الفلسطينيين واللبنانيين في هذه المرحلة، التي يتساوى فيها، في نظر الإسرائيلي، المقاتلون والمدنيون والرجال والنساء والسياسيون والعسكريون، تتخذ أسلوب «الحل الأخير» الذي كان قد اتبعه المتأثرون بالأفكار الهتلرية منذ بداية الأربعينات في مواجهة اليهود.

ملخص فكرة «الحل الأخير» كان أن التعايش مع اليهود، وفق أي صيغة، غير ممكن، وأن الحل الوحيد هو القضاء عليهم وهي الأفكار، التي جعلت أمر إبادة اليهود مطروحاً.

نعيش اليوم رواية معكوسة تعالج موضوع «الحل الأخير» نفسه. في «هولوكوست» اليوم تتحوّل ضحية الأمس إلى مجرم لا ينتقم لما أصابه، وإنما يوجه شره إلى شعوب لم تظلمه... وهناك عدة تعقيدات تواجه الاستلهام الصهيوني لمسألة الحل الأخير، أهمها الفارق الديموغرافي والجغرافي، فمن العبث والحماقة الطاغية محاولة القضاء على جميع الجيران خشية التهديد. ويتعلق التعقيد الثاني بمسألة «التطبيع»، التي كانت دول وكيانات ومؤسسات قد استثمرت فيها بشكل كبير، وروّجتها، في فترة الهدوء النسبي، التي كانت تعيشها المنطقة قبيل «الفيضان». تلك الدعوات، التي كانت، تحت مسمّى التعايش وتجاوز الخلافات، تدعو إلى استيعاب الجسم الإسرائيلي في نسيج المنطقة، أصبح صوتها أضعف اليوم، كما أصبح مروّجوها في وضع لا يُحسدون عليه. حزب الله اللبناني هو الذراع الخارجية الإيرانية الأهم، ولدوره ضمن التحالف، الذي يتبنّى مقاومة الاحتلال، كان عليه ألا يقف مكتوف الأيدي أمام الجرائم الصهيونية. هنا يبرز السؤال نفسه في الحالة اللبنانية، فهل كانت عملية «البيجر» وما تلاها من استهداف لقياداتٍ كان من بينها زعيم الحزب، حسن نصر الله، مجرّد ردّ فعل على العمليات العسكرية، التي أقلقت المضاجع، وأدّت إلى تهجير سكان من البلدات الإسرائيلية التي تقع في مرمى الصواريخ، أم إنها كانت عملاً مخطّطاً له بشكل مسبق؟

(كاتب سوداني في لندن)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير معن البياري ■ مدير التحرير ارنست خوري ■ المدير الفني إميل منعم ■ السياسة جمانة فرحات ■ الاقتصاد مصطفى عبد السلام ■ الثقافة نجوان درويش ■ منوعات ليال حداد ■ المجتمع يوسف حاج علي ■ الرياضة نبيل التليلي ■ تحقيقات محمد عزام ■ مراسلون نزار قنديل

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، لندن
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب الدوحة
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600

■ مكتب بيروت
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads